

مشكلة العنصرية وكيف تعامل معها النورسي

د. عرفات كرم مصطفى ستوني

بحث مقدم للمؤتمر العالمي التاسع حول النورسي في استانبول

2010

تمهيد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه... وبعد.

يعد إبليس أول من فضل عنصره على عنصر غيره، حيث رفض السجود لآدم عليه السلام بحجة أنه أفضل من آدم (عليه السلام)، لكونه خلق من نار، وآدم خلق من طين، وعنصر النار في زعمه أفضل من عنصر التراب، وقد ورد ذكر القصة في القرآن الكريم، قال تعالى {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} ¹.

ولا ريب أن التاريخ الإنساني بصورة عامة مليء بهذه النماذج السيئة، ولسنا بحاجة إلى الحديث عنها، لأننا سنركز على موقف النورسي من هذه المشكلة، والتي تعد أخطر المشاكل التي تواجه المجتمعات الإنسانية، وعلى وجه الخصوص المجتمع المسلم، الذي يعول على الرابطة الدينية بدل الرابطة القومية والعرقية والجنسية.

ولقد قام النورسي بتشخيص هذا الداء، وتقديم علاج لهذا المرض الوييل، فقام بالمقارنة بين المدنية الغربية والمدنية الإسلامية، فالأولى من ثمارها القومية السلبية والعنصرية والأنانية، بينما الثانية من ثمارها التعاون والأحوة والمحبة والألفة، وقد استمد ذلك كله من فلسفة القرآن الكريم، وتجاربه المبررة الطويلة.

ولم يكتف النورسي بتقديم نظريات مجردة، بل قدم مشاريع ومقترحات حضارية للرقى بالبلاد والعباد، وخاصة عندما أدرك أن ثمة خطراً يهدد استقرار البلاد من الولايات الشرقية، ومن علائم ذلك الخطر الفقر والجهل والاختلاف، فاقترح تأسيس جامعة الزهراء مع فروع واسعة لها على غرار الجامع الأزهر، وفتح مدارس لتعليم العلوم الحديثة والعلوم الدينية الشرعية.

وسنحاول في هذا البحث إلقاء الأضواء على مشكلة العنصرية، وآثارها، وكيفية تعامل النورسي معها، في ظل الظروف المتقلبة والمضطربة التي مر النورسي ².

والله نسأل التوفيق والسداد

¹ سورة ص الآية 73-76.

² لم يتطرق الباحث إلى سيرة حياة النورسي، وذلك لشهرته الواسعة، ثم لكثرة المؤلفات والكتب والرسائل التي ألفت حول سيرته، وخوفاً من خروج البحث عن حدوده المعروفة في المؤتمرات الدولية، ومن أراد معرفة سيرته، فليراجع المجلد التاسع الخاص بسيرته في كليات رسائل النور، أو المؤلف القيم للأستاذ أورخان محمد علي في كتابه سعيد النورسي رجل القدر في حياة أمة.

العنصرية من الناحية اللغوية والاصطلاحية

العنصرية كلمة محدثة ليس لها استعمال مسبق في كتب فقهاء اللغة القديمة، وهي كلمة مشتقة من العنصر بمعنى الأصل، فنعصر كل شيء أصله³.

أما من الناحية الاصطلاحية فالعنصرية *Racialism* هي الاعتقاد الجازم بأن بعض الأجناس أساساً أفضل من الأجناس الأخرى، وأعلى منها شأنًا ومرتبة⁴، فالعنصرية في نهايتها نظرية رجعية تبرر التفاوت الاجتماعي والاستغلال والحروب بحجة انتماء الشعوب لأجناس مختلفة⁵.

ولا ريب أن العنصرية كانت سبب الحروب الطاحنة، وعمليات الإبادة الجماعية في كثير من أصقاع العالم، وخاصة في الدول التي فيها تلون ثقافي وطائفي وعرقي، واختلاف مذهبي وديني، والتاريخ مكتظ بالأمثلة، في أوروبا وأمريكا الشمالية وأفريقيا وألمانيا، وقديما في اسبانيا خلال فترة محاكم التفتيش المهولة.

ولقد أدرك النورسي خطورة هذا المرض العضال، والداء الوبيل على العالم الإسلامي، لأنه سيمزق وحدته، ويشتت جمعه، لذا حاول بكل ما أوتي من طاقة وجهد التعامل مع مشكلة العنصرية، ولذلك نجد في موسوعته الكبرى - رسائل النور - معالجة علمية وفلسفية دقيقة مستمدة من آيات القرآن الكريم، وتجاربه الميرة المصقولة لهذه المشكلة، وصدق النورسي عندما قال: "إن رسائل النور هي أقوى وسيلة، وأنجع دواء لهذه الأمة في هذا البلد في سبيل إعادة الإخوة الإسلامية السابقة، والمحبة السابقة، وحسن الظن والتعاون المعنوي بين ثلاثمائة مليون مسلم"⁶.

يحاول النورسي في مجموع رسائله إعادة التوازن إلى المجتمع الإنساني عامة، ذلك المجتمع الذي اهتز بنيانه بسبب الأفكار والتصورات التي أفرزتها المدنية الغربية الحاضرة، والنورسي ينطلق من فلسفة القرآن الكريم مقارنا بها فلسفة المدنية الغربية المادية، وذلك ليدرك مدى تأثير كل واحد منهما في تربية المجتمع الإنساني، فالمدنية الغربية ترى القوة نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية، بينما القرآن الكريم يرى

³ ابن منظور: لسان العرب (بيروت، دار صادر، ط1، د.ت) 213/3، الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 2001م) 212/3. وقارن مع ليف من العلماء: المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية (د.م. دار الدعوة، د.ط.ت) 631/2.

⁴ *Oxford Advanced Learners Dictionary* (Oxford University Press) Pp 1241. And see: <http://www.businessdictionary.com/definition/racialism.html>.

⁵ لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم (بيروت، دار الطليعة، ط2، 2006م) ص 316.

⁶ النورسي، سعيد: كليات رسائل النور، ترجمة: إحسان قاسم الصالحى (استانبول، دار سوزلر، ط3، 1419هـ، 1998م) 397/9.

الحق نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية، هذا أولاً، ثانياً، المدنية الغربية تجعل المنفعة هدفاً في كل شيء، بينا القرآن الكريم يجعل رضا الله سبحانه، ونيل الفضائل هو الغاية، ثالثاً، المدنية الغربية تتخذ الصراع دستوراً للحياة، بينا القرآن الكريم يتخذ التعاون أساساً في الحياة، رابعاً، المدنية الغربية تجعل العنصرية والقومية السلبية رابطة الجماعات، بينما القرآن الكريم يلتزم برابطة الدين والصنف والمهنة والوطن بدلاً من الروابط الأخرى الهشة، خامساً، المدنية الغربية تدفع الإنسان إلى إشباع رغباته ونزواته فيسقط من درجة الملائكية إلى درك الحيوانية، بينما القرآن الكريم يدفع الإنسان إلى تجاوز النفس الأمارة بالسوء، والرقى بالروح إلى معالي الأمور، وإشباع مشاعره السامية نحو الكمال والمثل الإنسانية العليا.⁷

ثم يلج النورسي في تفاصيل هذه المسألة، فيشرح كل مسألة على حدة، ليكون القارئ على قناعة بفلسفة القرآن الكريم الحقة عند مقارنتها بفلسفة المدنية الغربية المهترئة، والتي تأسس على خمسة أسس سلبية، وقد مر ذكرها آنفاً، ولما كانت القوة نقطة استنادها في الحياة، فإن من شأن القوة الاعتداء على الآخرين، ولما كان هدفها وغايتها وقصدتها المنفعة في كل شيء، فإن من شأن المنفعة التضاحم عليها، ولما كان دستورها في الحياة الجدال والصراع، فإن من شأن ذلك التنازع، ولما كانت الرابطة التي تجمع الجماعات البشرية، العنصرية والقومية السلبية التي تنمو على حساب الآخرين، فإن من شأنها التصادم، ولأجل هذا فقد دفعت هذه المدنية الغربية الحاضرة ثمانين بالمائة من البشرية إلى أحضان الشقاء، وأخرجت عشرة بالمائة منها إلى سعادة مموهة وزائفة، فظلت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك.⁸

أما المدنية التي جاء بها القرآن الكريم فإنها تأسست على أسس إيجابية، فالحق نقطة استناد الحياة الاجتماعية بدل القوة، ومن شأن الحق العدالة والتوازن، والفضيلة هي الغاية والهدف والمقصد بدل المنفعة، ومن شأنها المحبة والتحابب، والرابطة التي تجمع الجماعات البشرية هي الرابطة الدينية والوطنية والمهنية بدل العنصرية، وهذا من شأنها الإخوة الخالصة والسلام والوئام، والذود عن البلاد عند اعتداء الأجنبي، ودستورها في الحياة التعاون بدل الصراع والجدال، ومن شأن التعاون التساند والاتحاد، وتضع هذه المدنية التي جاءت بها الشريعة الهدى بدل الهوى، وشأن الهدى رفع الإنسانية إلى مراقى الكمالات.⁹

ثم يتحدث النورسي عن حقيقة السعادة، فيقول: "إن السعادة تكون سعادة عندما تصبح عامة لكل أو للأكثرية، بيد أن سعادة هذه المدنية هي لأقل القليل من الناس، لأجل كل هذا لا يرضى القرآن الكريم بمدنية لا تضمن سعادة الجميع أو لا تعم الغالبية العظمى"¹⁰.

⁷ النورسي: رسائل النور 145/1 وقارن مع موضع آخر من الرسائل : 357/8.

⁸ النورسي: الرسائل 145/1، وراجع أيضاً: الرسائل 357/8.

⁹ النورسي : الرسائل 359/8.

¹⁰ النورسي: الرسائل 357/8-358.

ثم قال رحمه الله: " فهذه الدساتير والأسس التي تستند إليها هذه المدينة الحاضرة هي التي جعلتها عاجزة - مع محاسنها - عن أن تمنح سوى عشرين بالمائة من البشر سعادة ظاهرية، بينما ألفت البقية إلى شقاء وتعاسة وقلق"¹¹.

إن هذه المقارنة والتحليل والتفكيك الذي قدمه النورسي في رسائله في كنهها نظرية متكاملة، وفلسفة عقلانية دقيقة، استمدتها من آيات القرآن الكريم، وتجاربه الميرة التي صقلته، فالأسس السلبية التي بنيت عليها المدينة الغربية، أوقعت بلادا كثيرة في قلاقل واضطرابات عنيفة، وخاصة في أوربا كما ذكر النورسي، بينما الأسس الإيجابية التي دعا إليها القرآن الكريم تصون البلاد وتحفظ للعباد سعادتهم واستقرارهم وراحتهم وتوازهم، لأنها أسس ترسخ العدالة الاجتماعية والمساواة بين الشعوب والأمم، وترفض جميع أشكال الظلم والجور والعنصرية والأناية، ومع ذلك كان من بين نواب البرلمان من قال للنورسي: " نحن بحاجة إلى الحضارة الغربية أكثر من حاجتنا إلى الجمع بين العلوم الدينية والحديثة"¹². ولا جرم أن هؤلاء قد غرهم بريق المدينة الغربية، ولم يسبروا غورها، ولم يدركوا كنهها، ولم يقارنوا بين ما جاء به الإسلام للبشرية، وما قدمته المدينة الغربية، وليس النورسي رافضا لكل ما جاءت به المدينة الغربية، فلا أحد ينكر ما قدمته هذه المدينة من خدمات جليلة من الناحية العمرانية والتكنولوجية وما شاكل ذلك، ولكن المشكل أن تحل هذه المدينة قلبا وقالبا محل المدينة القرآنية، فلا بأس من الاستفادة من الغرب من الناحية المادية، شريطة الالتزام بقواعد الدين وأسسها، وعدم التخلي عن الدين وأصوله.

ويقدم النورسي قاعدة راسخة مغزاها (خذ ما صفا، ودع ما كدر) حيث يقول: " وفي ضوئها سنأخذ من الأجانب - مشكورين - كل ما يعين الرقي المدني من علوم وصناعات، أما العادات والأخلاق السيئة، فهي ذنوب المدينة ومساوئها التي لا يتبين قبحها كثيرا لكونها محاطة بمحاسن المدينة الكثيرة"¹³. ثم يحث النورسي المسلمين للاقتداء باليابانيين في المدينة، " لأنهم حافظوا على تقاليدهم القومية التي هي قوام بقائهم، وأخذوا بمحاسن المدينة من أوربا، وحيث إن عاداتنا القومية ناشئة من الإسلام، وتزدهر به، فالضرورة تقتضي الاعتصام بالإسلام"¹⁴.

لقد اعترف القرآن الكريم بوجود الشعوب والأمم والقبائل المختلفة، قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }¹⁵. فالآية صريحة في نفي التفاضل بين الأجناس، ونفي كون بعضها أفضل من البعض الآخر،

¹¹ النورسي: الرسائل 472/1.

¹² النورسي: الرسائل 449/9.

¹³ النورسي: الرسائل 468/8.

¹⁴ النورسي: الرسائل 468/8.

¹⁵ سورة الحجرات الآية 13.

فالأفضل والأعلى والأكرم هو الأتقى، فالروابط الأخرى وفق منظور القرآن الكريم لا قيمة لها، وهي هشة مرفوضة، لذا لا يمكن لقومية أن تكون أفضل من أختها إلا بالتقوى، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى"¹⁶.

لقد قسم النورسي القومية إلى قسمين:

أولاً: القومية الإيجابية.

ثانياً: القومية السلبية أو كما يسميها النورسي العنصرية.

فالقومية الإيجابية نابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية، وهي سبب للتعاون والتساند، وتحقق قوة نافعة للمجتمع، وتكون وسيلة لإسناد أكثر للإخوة الإسلامية¹⁷. أما القومية السلبية أو العنصرية فهي مرض مشؤوم مضر، يترى وينمو بابتلاع الآخرين، ويدوم بعداوة من سواه، ويتصرف بحذر، وهذا يولد المخاصمة والنزاع¹⁸.

ومن خلال تصفحي لرسائل النور تبين لي أن النورسي رفض القومية في حالتين اثنتين:

الحالة الأولى: عندما تغدو القومية أداة عنصرية لظلم الأخر، وهضم حقوقه الطبيعية.

الحالة الثانية: عندما تحل القومية محل الدين.

ففي الحالة الأولى عندما تغدو القومية أداة لظلم الآخرين، وهضم حقوقهم، فإنها ستصبح مرفوضة البتة، وقد نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك، فعندما سئل صلى الله عليه وسلم، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه، فقال: لا، ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم¹⁹. فالعصبية هي: "أن يدعو الرجل إلى نصره عصبته، والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين"²⁰.

¹⁶ رواه أحمد بن حنبل في مسنده من حديث أبي نضرة حدثني من سمع: خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق، وقد صحح إسناد الحديث الشيخ شعيب الأرنؤوط، رقم الحديث 23536 / 411/5. وما أكثر النصوص من الكتاب والسنة على هذه الحقيقة، ولسنا بحاجة إلى التطرق إلى ذلك خوفاً من الخروج عن صلب الموضوع ولبه، فجمع الآيات والأحاديث حول هذا الموضوع يتطلب دراسة مستقلة منفردة.

¹⁷ النورسي: الرسائل 2/ 415.

¹⁸ النورسي: الرسائل 2/ 414.

¹⁹ رواه أحمد في مسنده عن كعب بن عياض رقم الحديث 17507 وابن ماجه في سننه باب العصبية رقم الحديث

3949.

²⁰ ابن منظور: لسان العرب 1/ 602.

ولقد ذكر النورسي مثالا قيما في التاريخ الإسلامي حول هذه المشكلة، حيث تحدث عن الأمويين عندما تسلموا مقاليد السلطة في (40هـ - 132هـ)، حيث صور النورسي الصراع بين أبناء الرسول (صلى الله عليه وسلم) والأمويين بأنه صراع بين الدين والقومية، يقول رحمه الله: "اعتمد الأمويون على جنس العرب في تقوية الدولة الإسلامية، وقدموهم على غيرهم، أي فضلوا رابطة القومية على رابطة الإسلام، فأضروا من جهتين:

الأولى: آذوا الأقباط الأخرى بنظرتهم هذه، فولدوا فيهم الكراهية والنفور.

الثانية: أن الأسس المتبعة في القومية والعنصرية أسس ظالمة لا تتبع العدالة ولا توافق الحق، إذ لا تسير تلك الأسس على وفق العدالة"²¹.

ولا جرم أن الأمويين بهذه السياسة العنصرية كانوا السبب في ظهور حركة اجتماعية إصلاحية عرفت بأهل المساواة، ثم انتهت إلى حركة سياسية جارفة خطيرة عرفت بالشعبوية"²².

ولقد تحدث الجاحظ (ت255هـ) عن سياسة بني أمية، عندما سموا استبدادهم بالسلطة عام الجماعة، فقال: "وما كان عام جماعة، بل عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة، والعام الذي تحولت الإمامة ملكا كسرويا، والخلافة غصبا قيصريا"²³.

فالعنصرية والعدالة متضادتان، لا يمكن أن يجتمعا، "لأن الحاكم العنصري يفضل من هم بنو جنسه على غيرهم، فأنى له أن يبلغ العدالة، بينما الإسلام يجب ما قبله من عصبية جاهلية، لا فرق بين عبد حبشي وسيد قرشي إذا أسلما"²⁴. فلقد كان عمر يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا، يعني بلالا²⁵، مع أن بلالا كان عبدا حبشيا.

²¹ النورسي: الرسائل 68/2.

²² انظر: بحثنا المنشور في مجلة الفجر الجديد (العدد 14 سنة 2004، العراق، كركوك) عرفات كرم ستوني: ملاحظات حول الدراسات التي تناولت الحركة الشعبوية.

²³ الجاحظ: رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون (بيروت، دار الجيل، ط1، 1411هـ، 1992م) 11/2. وقد قال ابن عمر معاوية: "إن هذه الخلافة ليست بمركلية ولا قيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء، ولو كان كذلك لكنت القائم بها بعد أبي، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى". انظر: ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة (د.م.ط. مؤسسة ناصر للثقافة) 242/1. راجع كتابنا: تاريخ التعريب الديني (أربيل، مطبعة جامعة صلاح الدين، ط1، 2006) ص 11 وما بعدها.

²⁴ النورسي: الرسائل 68/2.

²⁵ رواه البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، باب مناقب بلال بن رباح رقم الحديث 3544.

وعليه، فإنه كما يقول النورسي: "لا يمكن إقامة رابطة القومية بدلا من رابطة الدين في ضوء هذا الأمر الجازم، إذ لا تكون هناك عدالة قط، وإنما تهدر الحقوق، ويضيع الإنصاف"²⁶، ثم قال: "إن اعتماد الأمويين على قومية العرب وحدهم في إدارة شؤون الدولة، ونظرتهم المتعالية على سائر الأقسام كأنهم عبيد، وتسميتهم بالموالي... هذا الأمر هيج العصبية القومية لدى الأمويين، فأدى بهم الأمر إلى ارتكاب تلك الفاجعة الأليمة التي لا تجد فيها رحمة ولا عطفًا ولا رأفة"²⁷.

ثم عاد النورسي ليفسر الآية الكريمة التي هي الحكم الفصل في مثل هذه المواطن العويصة، تلك الآية التي تحدد طبيعة العلاقات بين بني البشر على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأجناسهم ومشاربهم، يقول النورسي مفسرا الآية: "أي خلقناكم طوائف وقبائل وأما وشعوبا، كي يعرف بعضكم بعضا، وتتعرفوا على علاقاتكم الاجتماعية، لتتعارفوا فيما بينكم، ولم نجعلكم قبائل وطوائف لتتناكروا فتتخاصموا"²⁸.

وبعد أن تحدث النورسي عن الأمويين في التاريخ، ودورهم في تفضيل الرابطة القومية على الرابطة الدينية، تحدث عن عصره الذي كان يعاني من المرض نفسه، حيث انتشر الفكر القومي وترسخ، متهما أوروبا وراء تفشي هذا المرض، حيث أثاروا مشكلة القومية بشقها السلي لا الإيجابي، وذلك من أجل تمزيق العالم الإسلامي، ليسهل عليهم ابتلاعه"²⁹.

ولقد عانت شعوب أوروبا كثيرا من هذا المرض الخطير، لما دعوا إلى العنصرية، وأوغلوا فيها في هذا العصر، فنجم العداة التاريخي المليء بالحوادث المريعة بين الفرنسيين والألمان، كما أظهر الدمار الرهيب الذي أحدثته الحرب العالمية"³⁰. ثم قال النورسي وهو يتحدث عن المدينة الغربية: "إن مجموع ما ارتكبه البشرية من مظالم وجرائم وخيانات في القرون الأولى قاءها واستفرغتها هذه المدينة الحبيثة مرة واحدة"³¹.

تقول كارين آرمسترونغ وهي تتحدث عن الثورة الفرنسية في كونها: "بدأت بمثل عليا، لكنها ما لبثت أن انحطت إلى فوضى وسفك دماء ووحشية... فعندما تضرب النزعة القومية وحدها جذورا بين

²⁶ النورسي: الرسائل 2/ 68.

²⁷ النورسي: الرسائل 2/ 70.

²⁸ النورسي: الرسائل 2/ 413.

²⁹ النورسي: الرسائل 2/ 414.

³⁰ النورسي: الرسائل 2/ 414.

³¹ النورسي: الرسائل 1/ 857.

الناس، من المحتمل أن تحط من قيمة روحهم وإنسانيتها، على أن تليها"³². ولعل النازية³³ *Nazism* بقيادة أدولف هتلر الألماني *Adolf Hitler* (ت1945م) والحركة الفاشية³⁴ *Fascism* التي قادها موسوليني الإيطالي (ت1945م) *Benito Mussolini* خير مثال يجسد حقيقة القومية السلبية والعنصرية في أوروبا، يقول ساندرسون: "الجنس الآري العظيم وحده القادر على قيادة البشرية نحو طريق الحرية الدينية والسياسية والحرية الفكرية"³⁵. يبدو أن هتلر تأثر بفلسفة هيغل (ت1831م) *Friedrich Hegel* وفشته (1814م) *Johann Gottlieb Fichte* يقول فشته في كتابه نداءات إلى الأمة الألمانية: "كون المرء أخلاقيا وكونه ألمانيا هما شيء واحد"³⁶. ويتطرف هيغل ويبالغ قائلا: "الألمان هم وحدهم الذين تفهموا الحرية بنطاقها الكلي الشامل"³⁷. وهذه النظرية تسمى بالألمانية بـ *Herrenvolk* أي الشعب السيد أو السيادة الشعبية، أو *Herrenrasse* أي العرق أو الجنس، أي تفوق العرق الألماني أو الجنس الجرمني على سائر الأعراق والأجناس في جميع أنحاء العالم، وهذا يقتضي أن يحكم هذا الجنس الأعظم والأفضل هذا العالم كله، لكونه يستحق ذلك. ولولا أن طبيعة البحث تفرض الاختصار والإيجاز لتطرقنا إلى هذه المسألة أكثر وأعمق، ولذكرنا أمثلة عديدة على ذلك.

³² كارين أرمسترونغ: النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، ترجمة: محمد الجوراء (دمشق، دار الكلمة، ط1، 2005م) ص205.

³³ النازية نسبة إلى كلمة نازي *Nazi* وهي اختصار لاسم الحزب العمال الاشتراكي القومي الألماني *National Sozialistische Deutsche Arbeiterpartei* بزعامة هتلر الذي سيطر على ألمانيا سنة (1932م) انظر: عبد الوهاب المسيري: الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ (القاهرة، دار الشروق، ط4، 1426هـ، 2005م) ص49.

³⁴ الفاشية كلمة أطلقها موسوليني سنة 1919، وقد سيطر على مقاليد الحكم في إيطاليا حتى سقوطها بيد الحلفاء سنة 1945، والفاشية مشتق من الكلمة اللاتينية *Fasces* أي حزمة من العصي ومعها الفأس، والمعنى أن العصا الواحدة لا تصلح، وليس معها قوة ولا مقاومة، وإنما العصي مجتمعة لا يكسرهما شيء، ويرمز الفأس إلى القائد أو الزعيم الواحد أو الدولة المتحدة، تحت إمرة زعيم واحد يحكم قبضته عليها ويوحدها. أنظر: عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة (القاهرة، مكتبة مدبولي، ط3، 2000م) ص587.

³⁵ أليكس، جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ترجمه عن الروسية: خلف محمد الحداد (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1417هـ، 1996م) ص24.

³⁶ برتراند رسل: حكمة الغرب ترجمة د. فؤاد زكريا (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1983م) 127/2.

³⁷ برتراند رسل: حكمة الغرب 133/2.

ثم تحدث النورسي عن عهد الحرية (إعلان المشروطة- الدستور)³⁸ حيث ظهرت جمعيات مختلفة للروم والأرمن تحت أسماء أندية كثيرة، سببت تفرقة المسلمين... حتى كان منهم من أصبح لقمة سائغة للأجانب، ومنهم من تردى وضل ضلالا بعيدا"³⁹.

لقد كان النورسي بحق أمة، يدعو إلى الإخوة الإيمانية، والاتحاد والائتلاف، وكان يحارب بشدة كل فكر وأيدولوجية تسبب تفرقة المسلمين، تهدد وحدتهم، وكان في الوقت نفسه يحاول دائما أن يؤسس إخوة إيمانية صادقة بين شعوب العالم الإسلامي، وبما أن تركيا دولة فيها قوميات مختلفة، وأديان متعددة، فقد حاول في رسائله أن يحافظ على هذا التعايش السلمي والأخوي بين الشعوب والأمم والأديان.

ولقد أدرك النورسي أن تحقيق هذا المقصد الأعلى، وهذا الهدف النبيل يتطلب جهودا مخصصة جبارة، فمع كونه كرديا ينتمي إلى قومية مختلفة، ولغة متباينة، إلا أنه كان دوما يدعو إلى تفضيل رابطة الدين على الروابط الأخرى المؤقتة، وخاصة في حواراته مع دعاة القومية التركية من العنصريين، حيث يقول رحمه الله: "وعلى الرغم من أنني على علاقة وثيقة وصادقة وأخوة خالصة بالأتراك الحقيقيين، فإني لست على علاقة أبدا مع الدعوة القومية لأمثالكم من المتفريجين"⁴⁰.

فالنورسي انطلقا من فلسفته المتنورة، والتي استقها من آيات القرآن الكريم، وتجاربه المريرة، يرى أن الاختلاف في اللغة والثقافة والجنس لا يחדش حقيقة الإخوة الدينية، بل ذلك تنوع رباني، يرسخ الأخوة والوحدة أكثر، لأن الغاية من ذلك التنوع والتلون التعارف، وليس التخاصم والتصادم كما ذكر القرآن الكريم. يقول النورسي: "إن الأكراد الذين يبلغ تعدادهم الملايين، لم ينسوا قوميتهم، ولا لسانهم منذ ألوف السنين، وكانوا إخوة حقيقيين للأتراك في الوطن، ورفاقهم في سوح الجهاد منذ سالف العصور، أقول: إن أزلتم قوميتهم، وأنسيتموهم لسانهم، فلربما يكون تكليفكم هذا لأمثالنا - ممن يعدون من عنصر آخر- دستورا همجيا من دساتيركم، وإلا فهو مجرد هوى، وتصرف اعتباطي لا غير، ألا إن أهواء الأشخاص لا تتبع، ولا تتبعها نحن"⁴¹.

³⁸ المشروطة هي إعلان النظام البرلماني في الدولة العثمانية، وقد أعلن السلطان عبد الحميد الثاني المشروطة مرتين، الأولى في بداية حكمه في 19 مارت 1877م، ثم جمدها ثلاثين عاما بعد هزيمة دولته مع روسيا، ثم أعاد العمل بالمشروطة وهي المرة الثانية في 23 تموز سنة 1908م، واستمرت المشروطة حتى معاهدة موندروس في 1918/10/30م.

³⁹ النورسي: الرسائل 415/2.

⁴⁰ النورسي: الرسائل 555/2.

⁴¹ النورسي: الرسائل 556-555/2.

ولما أحس النورسي أن هذه الأخوة الإيمانية مهددة من داخلها، وقابلة للتصدع والتشطي، حاول أن يخطو خطوات هامة من أجل الحفاظ عليها، لأنها لو تصدعت لتمزقت الوحدة، وخاصة أن العنصرية والقومية السلبية تغلغت في جسم العالم الإسلامي، ومعلوم أن من ثمارها الحروب والعداء والدمار كما حصل لبلدان عديدة في العالم، ولقد ذكر النورسي قصة طريفة حول هذه المسألة، قال رحمه الله: "حينما كنت في مدينة (وان)، قلت لأحد طلابي الأكراد الغيورين، لقد خدم الأتراك الإسلام كثيرا، فكيف تراهم؟ قال: إني أفضل تركيا مسلما على شقيقي الفاسق، بل ارتبط به أكثر من ارتباطي بوالدي، لخدمته الإيمان خدمة فعلية"⁴². كان هذا الحوار الهاديء قبل تفشي القومية السلبية في الدولة العثمانية، وعندما تفشت هذه العدوى بين شعوب الدولة العثمانية، وحلت الرابطة القومية محل الرابطة الدينية، مرت الأيام والسنون، ودخل ذلك الطالب - أيام أسري - المدرسة الحديثة في استانبول، ثم قابلته بعد عودتي، فلمست أن عرق القومية الكردية قد تحرك فيه من جراء الدعوى العنصرية التركية لدى بعض معلميه، فقال لي: إني أفضل الآن كرديا فاسقا مجاهرا بل ملحدا على تركي صالح"⁴³. هذه هي ثمار القومية السلبية والعنصرية، تلقي بين الإخوة في الله البغضاء والعداوة والكرهية، وتقضي على الصداقة والمحبة والتعايش.

ولقد حاول بعض من يشغل مناصب مهمة أن يثير النعرة القومية، فشن هجوما على النورسي، لكونه من قومية مختلفة، فمن دسائس دعاة العنصرية من الأتراك قولهم: "أنتم أتراك، وفي الأتراك من أصناف العلماء، وأرباب الكمال الكثيرين بفضل الله، وإن سعيدا هذا كردي، فالتعاون مع من ليس من قوميتكم ينافي النخوة القومية"⁴⁴.

ولعل هذا الذي دفع النورسي إلى الانتساب إلى قريته (نورس) بدل قوميته، درءا للشبهات التي أثرت حول أصله، يقول رحمه الله: "وإنه شيء يقلب جوهر العدل إلى ظلم، ويوحى إلى الانحياز من جهة العدل، هو التعبير الذي يطلق علي بتسميتي، وفي كل مرة (سعيد الكردي) مع أن اسمي (سعيد النورسي) هنا، وفي اسبارطة في التحقيقات، وذكرهم إياي بأني كردي، وبهذا يوقظون حسا ضدي عند إخوتي في الآخرة، يتعلق بالحمية القومية، فضلا عن أن هذا تغيير لمجرى المحكمة وماهية عدالتها تغييرا تاما"⁴⁵.

إن الأخوة الإسلامية في تصور النورسي هي الركيزة الأساس، وهي مقدمة على جميع المعايير الأخرى، يقول رحمه الله: "وإني أستعيد بالله مائة ألف مرة من أن أضحي بهذه الكثرة الكاثرة من

⁴² النورسي: الرسائل 418/7.

⁴³ النورسي: الرسائل 418/7.

⁴⁴ النورسي: الرسائل 542/2.

⁴⁵ النورسي: الرسائل 263/9.

الإخوان الطيبين المترابطين بإخوة خالدة، ويمدونني بدعواتهم الخالصة، وفيهم أكثرية الأكراد المطلقة، واستبدل بمؤلاء الميامين دعوة عنصرية وقومية سلبية كسبا لود بضعة أشخاص معينين يحملون اسم الكرد، ويعدون من عنصر الكرد، ممن سلكوا سبيل الإلحاد والإنسلاخ من المذاهب والقيم⁴⁶.

لقد اشتغل النورسي في بداية مسيرته بالسياسة، ظنا منه أن ذلك خير وسيلة للإصلاح في شتى مجالات الحياة، وهي التي تسمى بمرحلة سعيد القديم، لكنه بعد أن تخلى عن السياسة، واستعاذ بالله منها، عرف بسعيد الجديد، اعتقادا منه أن السياسة شر لا تثمر خيرا، فبدأ بحياة إيمانية هادئة في خدمة القرآن الكريم، يقول رحمه الله: "لقد خاض سعيد القديم غمار السياسة ما يقارب العشر سنوات عله يخدم الدين والعلم عن طريقها، فذهبت محاولته أدرج الرياح، إذ رأى أن تلك الطريق ذات مشاكل ومشكوك فيها"⁴⁷.

وقال في موضع آخر: "إنني كما يعلم الجميع تركت الدنيا والسياسة منذ أكثر من أربعين سنة، إلا أن الذي دفعني إلى بيان هذا الإخطار القلبي والعلاقة القوية التي شعرت بها، هو تأثير رسائل النور التي كشفت منذ خمسين سنة عن أقصر طريق لإنقاذ الإيمان، والمعجزة المعنوية للقرآن الكريم في هذا العصر في البلدان العربية والباكستان أكثر من أي بلاد أخرى"⁴⁸. ذكر النورسي هذا الكلام بعد أن بارك التعاون الوثيق بين تركيا والعراق وباكستان، عله يكون سببا لوحدت المسلمين، وإقرار الأمان والسلام بين أربعمئة مليون مسلم، ثم حذر رحمه الله من العنصرية ودعوى القومية، لأنها: "خطر عظيم، نسأل الله أن يدفع تعاونكم مع العراق والباكستان ملايين من العنصريين، ويكسب في الوقت نفسه صداقة ثمانمئة مليون من النصارى وسائر الأديان الأخرى المحتاجين إلى إقرار السلام"⁴⁹.

الحالة الثانية: عندما تحل القومية محل الدين.

هذه الحالة هي أخطرها، لأنها عندما تحل محل الدين، فإنها ستصبح الدين البديل للدين الإلهي، يقول النورسي وهو يتحدث عن الفكر الإيجابي القومي، بأنه يجب أن يكون خادما للإسلام، وقلعة حصينة له، وسورا منيعا حوله، لا أن يحل محل الإسلام، ولا بديلا عنه، لأن الاخوة التي يمنحها الإسلام تتضمن ألوف أنواع الاخوة، وانما تبقى خالدة في عالم البقاء وعالم البرزخ⁵⁰.

⁴⁶ النورسي: الرسائل 542/2.

⁴⁷ النورسي: الرسائل 76/2.

⁴⁸ النورسي: الرسائل 415/7.

⁴⁹ النورسي: الرسائل 416/7.

⁵⁰ النورسي: الرسائل 416/2.

ثم أضاف رحمه الله قائلاً: "ولهذا فلا تكون الاخوة القومية مهما كانت قوية إلا ستارا من أستار الاخوة الإسلامية، وبخلافه أي إقامة القومية بديلا عن الإسلام خيانة خرقاء أشبه ما يكون بوضع أحجار القلعة في خزانة ألماس فيها، وطرح الألماسات خارج القلعة"⁵¹.

ويعتقد النورسي أن هذه المكيدة الشيطانية والدسيسة والخديعة صناعة الحضارة الغربية، فهي التي أفرزتها، لذا لا ينبغي الانخداع بها، والانجرار وراءها، ثم تطرق النورسي إلى بعض الأقوام في آسيا، عندما غرهم بريق المدينة الغربية، فكان الويل والعفاء، يقول رحمه الله: "إن الأقوام المتيقظة في آسيا، قد تمسكوا بالقومية، وحذوا حذو أوربا في كل النواحي، حتى ضحوا بكثير من مقدساتهم في سبيل ذلك التقليد"⁵².

وهذه الحالة الخطيرة تفشت في العالم الإسلامي، وخرج من بين شعوب المسلمين عناصر متطرفة غريبة تدعو إلى التعويل على الرابطة القومية بدل الرابطة الدينية، والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد عقد في باريس سنة (1913م) مؤتمر حول رابطة القومية لتحل محل الرابطة الدينية، وكان جل المشاركين من النصارى، وهذه الروابط في تاريخها لم تثمر إلا الحصاد المر من الصراعات والنزاعات والخصومات بين الأمم والشعوب والدول، لأنها روابط مصلحية مؤقتة تزول بأدنى اختلال في بنيتها، بينما الرابطة الدينية تبقى ولا تزول إلا بزوال الدين نفسه، يقول النورسي: "فليست هناك رابطة حقيقية وقوية غير الإسلام بين العرب والترك والكرد والأرناؤوط والجرمكس واللاز"⁵³.

موقف النورسي من ثورة الشيخ سعيد بيران

قامت ثورة الشيخ سعيد بيران سنة (1925م) عندما أدرك الشيخ أن رابطة الدين التي كانت تربط الأتراك والأكراد قد حلت، وحل محلها الرابطة القومية، ومع ذلك فإن ثورته فشلت، ولم تحقق أهدافها، وكان النورسي يتوقع فشلها، ولهذا لم يساندها ولم يشارك فيها، مع إلحاح الشيخ بيران كسب تأييد النورسي، لكونه يملك نفوذا ورأيا وأتباعا، ولنستمع إلى حوار أحد الذين جاءوا إلى النورسي ليقنعه بالمشاركة في ثورة الشيخ سعيد بيران، وهو حسين باشا، والحوار طويل جدا، سنقتصر على ما له صلة بموضوعنا، قال حسين باشا للنورسي: "سيدي لي معكم إستشارة في أمر خاص، أرجو أن تأذن لطلابك بالخروج، لأني أريد أن أتحدث معكم حديثا خاصا، فقال له النورسي: لا يمكن، فهؤلاء جزء من كياني، لا يفارقوني، أوضح ما عندك، فقال له حسين باشا: سيدي أرجو أن تأذن لنا بالعصيان مع الشيخ

⁵¹ النورسي: الرسائل 416/2.

⁵² النورسي: الرسائل 417/2.

⁵³ النورسي: الرسائل 97/9.

سعيد، فحن مستعدون، فقال له النورسي: لم تقومون بالعصيان؟ إن كان لزيد وعمرو ذنب، فما ذنب غيرهما، بل ستراق دماء المسلمين، فقال له حسين باشا: لقد أهلكنا الروس وقتلونا وأبادوا أموالنا وذرارينا، بينما ظل شرفنا مصانا دون أن يمسه أحد بسوء، ولكن الآن أصبح ديننا مهددا، وشرفنا معرضا للهتك، فأذن لنا بالعصيان، فجنودنا المشاة والفرسان على أهبة الاستعداد. وبعد أن أوضح حسين باشا الأمر والحوادث المؤلمة، والأستاذ مطرق ومستغرق في التفكير، رفع الأستاذ رأسه، وقال بكل لطف ولين: أيها الباشا تعال لنستشر ديوان أحمد الجزري وفتحته متفائلين به، أتقبل ما يقوله الجزري؟ فقال الباشا: نعم، فأخرج الأستاذ الديوان من جيبه وفتحته متفائلا به، وإذا بهذا البيت أمامهم:

هن زي بيف ديرى فه تين، قصدا كنيشتي هن دكن

نه ى زي فانم نه ى زي وانم من دري خمار بس⁵⁴.

ويعني: منهم من يرجع من طريق الكنيسة، ويدخل الإسلام، ومنهم من يعود إلى معبد اليهود فيتهود، أما أنا فلست من هؤلاء ولا من هؤلاء.

قال الأستاذ: رأيت يا باشا، فأنا الآن لست منكم ولا منهم. فقال الباشا: يا أستاذ لقد أوهنت عزيمتي، وضعفت همتي، فلو عدت إلى عشيرتي سيقولون، جبن الباشا فتخلى عن العصيان، قال النورسي: نعم وليقولوا: جبن وخاف، ولا يقولوا أراق الدم. وعندما استودع الباشا الأستاذ، كرر عليه الأستاذ ثلاث مرات: لا ترق الدم يا باشا، لا ترق الدم، وعاد حسين باشا إلى عشيرته، وفرق قواته، لذا لم تحدث أية حادثة في منطقة وان⁵⁵.

وكانت الوفود تكثرت زيارة النورسي لإقناعه بالمشاركة في الثورة، فمما قاله النورسي لوفد الشيخ سعيد بيران: "إن ما تقومون به من ثورة تدفع الأخ لقتل أخيه، ولا تحقق أية نتيجة، فالأمة التركية قد رفعت راية الإسلام، وضحت في سبيل دينها مئات الألوف بل الملايين من الشهداء فضلا عن تربيتها ملايين الأولياء، لذا لا يستل السيف على أحفاد الأمة البطلة المضحية للإسلام، الأمة التركية، وأنا أيضا لا أستله عليهم"⁵⁶.

ولا جرم أن هذا الموقف الجريء من النورسي ينبئ عن إيمانه العميق بالاخوة الدينية، والرابطة الإيمانية، وأنها الأساس والمعيار لبناء مجتمع مسلم مسالم آمن مطمئن مستقر، ولو أن كلمات هذا الرجل طبقت وحولت إلى واقع عملي لاستقر العالم الإسلامي، ولتحول إلى مجتمع ينعم بالسلام والوثام، ولغدا نموذجاً رائعا يحتذى به في العالم.

⁵⁴ شرح ديوان الجزري للملا عبد السلام الجزري، ضبط النص وعلق عليه: تحسين إبراهيم الدوسكي (دهوك، دار سبيريز، 2004م) 556/1.

⁵⁵ النورسي: الرسائل 207/9-208 القصة المذكورة في الهامش رقم 11.

⁵⁶ النورسي: الرسائل 208/9.

مشروع جامعة الزهراء

توصل النورسي بعد تجارب طويلة أن الحل الوحيد لرفي الأكراد ومواكبتهم لمسيرة العلم والمعرفة والمدنية العيش مع إخوانهم الأتراك في بلد واحد، شريطة معالجة المشاكل الثلاث المترابطة العويصة، والتي تهدد حياة الأكراد، وهي (الجهل والفقر والاختلاف). والحقيقة التي لا مجمحة فيها أن حل جميع هذه المشاكل تكمن في تأسيس مدرسة الزهراء، لأنها بطبيعتها ستقضي على الجهل والفقر والاختلاف، ولقد توحس النورسي خيفة من أن يستغل بعض دعاة القومية السلبية من الكرد نقاء نفوس العوام، وطهارة قلوبهم، فيوقعونهم في شبك الإلحاد والتغريب وما شاكل ذلك، يقول رحمه الله: " إن عدونا هو الجهل والضرورة والاختلاف، وسنجاهد هؤلاء الأعداء الثلاثة بسلاح الصناعة والمعرفة والاتفاق"⁵⁷. ثم تطرق إلى التعاون والتعاضد بين الكرد والترك قائلًا: " وستعاون ونتصادق يدا بيد مع الأتراك، وهم إخواننا الحقيقيون الذي كانوا السبب - من جهة - لإيقاظنا من غفلتنا ودفعنا إلى سبيل الرقي". ثم أضاف: " نعم نتعاون معهم، ومع جميع من يجاورنا، لأن الخصام والعداء فساد وأي فساد، فلا نملك وقتنا للخصام"⁵⁸.

لقد كان النورسي على قناعة أن الاخوة الدينية لن تدوم إن بقيت الولايات الشرقية متخلفة من الناحية العمرانية والثقافية والعلمية والمعرفية، مقارنة بالولايات الأخرى التركية المتطورة، لأن انعدام المساواة، وغياب العدالة الاجتماعية، وكسوف الإنصاف سيوقع البلد في صراع طبقي وعرقي يهدد الأمن والسلام، ولذلك أقدم النورسي على هذا المشروع الحضاري الوطني، لأنه سينقذ البلد من أي خطر قادم يزلزل كيان البلد، ولقد بدا للمسؤولين غرابة مطالب النورسي ومواقفه، لأنه لم يكن متوقعا أن يأتي رجل من تلك الأصقاع بلباسه الغريب المعروف، وهيئته غير المعهودة، وجرأته المعروفة، فيخاطب المسؤولين بهذا الكلام الجريء والصريح، ويطلبهم بحقوق إخوة لهم في الولايات الشرقية، لذلك اتهم بالجنون، وأحيل إلى مستشفى المجاذيب، وعين له طبيب لمعالجته، ولكن بعد أن أدركوا أن هذا الرجل بكامل عقله، وأنه جاد في دعوته، ومخلص في نيته، حاول وزير الأمن شفيق باشا أن يغريه بمبلغ من المال لكي يعدل عن مطالبه، حيث قال له الوزير: السلطان - عبد الحميد الثاني - يسلم عليك، كما أمر بصرف مرتب شهري لك ألف قرش، وقال: إنه سيرتفع إلى ثلاثين ليرة، فقلت جوابا: أنا لست متسول مرتب، وإن بلغ ألف ليرة، فأنا لم أت إلى هنا إلا من أجل أمي، وليس من أجل نفسي، ثم إن ما تحاولون تقديمه لي ليس إلا أتاوة للسكوت، فقال الوزير: أنت ترد إرادة السلطان، وهذه الإرادة لا ترد، قلت جوابا: إنني

⁵⁷ النورسي: الرسائل 94/9.

⁵⁸ النورسي: الرسائل 94/9.

أردها لكي يتكدر السلطان ويستدعيني، عند ذلك أجد الفرصة لقول الحق عنده، فقال الوزير: ستكون العاقبة وخيمة، الجواب: لو كانت نتيحتها إلقاءي في البحر، فإن البحر سيكون لي قبرا واسعا، وإن نفذ إعدامي فسأرقد في قلب الأمة، علما بأنني عندما حضرت إلى أستانبول حضرتها، وقد وضعت روعي على راحة كفي، فافعلوا بي ما بدا لكم، وأنا أعني ما أقول، قال الوزير: إن اقتراحك بنشر المعارف والعلوم في كردستان هو الآن موضع دراسة في مجلس الوزراء، بديع الزمان: إذن فلماذا أجل بحث المعارف، واستعجل في المرتب، وعلى أي أساس تم هذا؟ لماذا تفضلون المنافع الشخصية على المنافع العامة⁵⁹. هذه كانت أول زيارة له إلى أستانبول سنة (1896م) في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، لكن الرجل عاد خالي اليدين، ثم بعد إحدى عشرة سنة أي سنة (1907م) عاد للمطالبة بالمشروع نفسه، لقد قضى النورسي خمسا وخمسين سنة من عمره في سبيل تحقيق هذا المشروع، لأنه كان على قناعة مطلقة، أن هذا المشروع سيخدم البلاد والعباد.

أراد النورسي تأسيس مدرسة الزهراء - شقيقة الجامع الأزهر - في مدينة بتليس، ومع فروع لها في كل من مدينة وان وديار بكر، ولقد حاول رحمه الله زيارة الجامع الأزهر لكن الظروف لم تسمح له، حيث قال: "قبل خمس وستين سنة أردت الذهاب إلى الجامع الأزهر، باعتباره مدرسة العالم الإسلامي، لأهمل فيه من العلوم، ولكن لم يكتب لي نصيب فيه، فهداني الله إلى فكرة، وهي: أن الجامع الأزهر مدرسة عامة في أفريقيا، فمن الضروري إنشاء جامعة في آسيا على غرار، بل أوسع منه بنسبة سعة آسيا على أفريقيا"⁶⁰.

ولقد بين النورسي أهداف هذه المدرسة، وهي كالاتي:

- إقرار السلام في الولايات الشرقية.
- إظهار محاسن المشروطة والحرية والاستفادة منها
- الوقوف تجاه القوى المدمرة كالقوى الإلحادية.
- تأمين مستقبل العلماء الأكراد والأترك.
- لئلا تفسد العنصرية الأقوام في البلدان العربية والهند وإيران والقفقاس وتركستان وكردستان.

● إنماء الروح الإسلامية التي هي القومية الحقيقية الصائبة السامية

الشاملة، فتتال شرف الامتثال بالدستور القرآني {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} ⁶¹.

⁵⁹ النورسي: الرسائل 74/9 - 75.

⁶⁰ النورسي: الرسائل 416/7.

⁶¹ سورة الحجرات الآية 10.

- لتتصافح العلوم النابعة من الفلسفة مع الدين.
- لتتصالح الحضارة الأوربية مع حقائق الإسلام مصالحة تامة.
- لتتفق وتتعاون المدارس الحديثة مع المدارس الشرعية في الأناضول⁶².
- إقحام المعرفة عن طريق المدرسة إلى كردستان.
- إنقاذ الإسلام من الأساطير والإسرائيليات والتعصب الممقوت⁶³.

ثم قال النورسي: "لذا بذلت جهدي كله لتأسيس هذه الجامعة في مركز الولايات الشرقية التي هي وسط بين الهند والبلاد العربية وإيران والقفقاس وتركستان"⁶⁴.

ولقد استطاع النورسي بأسلوبه العلمي أن يقنع النواب بفتح جامعة كهذه، يقول رحمه الله: "وإن السلطان رشاد رحمه الله هو أول من قدر أهمية إنشاء هذه الجامعة، فخصص عشرين ألف ليرة ذهبية لإنجاز بنائها فقط، وحينما رجعت من الأسر في الحرب العالمية الأولى وافق ثلاثة وستون ومائة نائبا- من بين مائتين- في البرلمان، ووقعوا على تخصيص مائة وخمسين ألف ليرة -بقيمة الليرة الثمينة آنئذ- للغرض نفسه، وكان كمال مصطفى من ضمنهم"⁶⁵.

ومما قاله النورسي وهو يخاطب النواب بقوله: "إن في الشرق حوالي خمسة ملايين من الأكراد، وحوالي مائة مليون من الإيرانيين والهنود وسبعين مليوناً من العرب، وأربعين مليوناً من القفقاس، فهؤلاء تربطهم الاخوة وحسن الجوار وحاجة بعضهم إلى البعض الآخر"⁶⁶.

ثم قال مخاطباً: "فأنا أسألكم أيما ضروري أكثر، الدرس الذي يتلقاه الطالب في مدرسة وإن الجامعة بين الشعوب والأمم، أم الدرس الذي ينفرد بين تلك الشعوب، ويحصر تفكيره بقومه فقط، وينكر إخوة الإسلام"⁶⁷.

وبعد خمس وعشرين سنة أي سنة (1950م) قرر وزير المعارف توفيق ايلري إنشاء مدرسة الزهراء في وان باسم جامعة الشرق، ووافق على ذلك رئيس الجمهورية جلال بايار، وحاول إصدار قانون لتخصيص ستين مليوناً من الليرات لإنشائها"⁶⁸.

⁶² النورسي: الرسائل 417/7.

⁶³ النورسي: الرسائل 417/7 وانظر كذلك الرسائل 419/9.

⁶⁴ النورسي: الرسائل 417/7.

⁶⁵ النورسي: الرسائل 417/7.

⁶⁶ النورسي: الرسائل 418/7.

⁶⁷ النورسي: الرسائل 418/7.

⁶⁸ النورسي: الرسائل 508/9.

ثم حذر النورسي المسؤولين من مشكلة أخرى متفاقمة، وهي عدم معرفة أهالي الولايات الشرقية اللغة التركية، وهذا يحيل بينهم وبين تعلم العلوم الحديثة والمتطورة والمتقدمة، فعدم معالجة هذه المشكلة وحلها بلا ريب سيكون سببا في تفشي الفوضى والاضطرابات، والحكومة مع كونها ماضية في مشاريعها، وخاصة في بناء المدارس في تلك الولايات، ولكن المشكلة، أن مدى الاستفادة من هذه المدارس الحديثة ينحصر في الذين يعرفون اللغة التركية، بينما يحرم الأكراد من تلك العلوم والمعارف لعدم معرفتهم باللغة التركية، ولعدم معرفة معلميههم باللغة المحلية، لذا لا يجدون أمامهم سوى الانخراط في المدارس الدينية طريقا للمعرفة"⁶⁹.

وهذا يدل بلا ريب على عمق تفكير النورسي ونظرته الثاقبة، لأن الاقتصار على العلوم الشرعية دون الجمع بينها وبين العلوم الحديثة، سيخرج جيلا من المتعصبين، يقول رحمه الله: "ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، فتتري همة الطالب، وتعلو كلا الجناحين، وبافتراقهما يتولد التعصب من الأولى، والحيل والشبهات في الثانية"⁷⁰.

لذا اقترح النورسي على المسؤولين القيام بفتح ثلاث مدارس نموذجية للتعليم في مواقع مختلفة من كردستان.

إحداها: في بيت الشباب، التي هي مركز عشائر الأرتوشي.

ثانيتها: في وسط موتقان وبلقان وساسون.

ثالثتها: في وان التي تمثل وسط حيدران وسبكان.

وتدرس في هذه المدارس العلوم الدينية مع العلوم الحديثة الضرورية، وليكن في كل مدرسة خمسون طالبا في الأقل، تتكفل الحكومة بمعاشهم"⁷¹.

ولقد استطاع النورسي بحق أن يحقق مشاريعه الحضارية في قلوب المسلمين من خلال رسائله المبثوثة، وأنقذ الأخوة الإسلامية من خطر العنصرية والقومية السلبية، وخاصة الأخوة الحقيقية بين الأتراك والأكراد، وصدق رحمه الله عندما قال: "إن رسائل النور هي أقوى وسيلة، وأبجع دواء لهذه الأمة في هذا البلد في سبيل إعادة الإخوة الإسلامية السابقة، والمحبة السابقة، وحسن الظن والتعاون المعنوي بين ثلاثمائة مليون مسلم"⁷².

⁶⁹ النورسي: الرسائل 498/9. ولقد اقترح النورسي أن تكون اللغة العربية في تلك المدارس واجبة، والكردية جائزة، والتركية لازمة. راجع الرسائل 503/9.

⁷⁰ النورسي: الرسائل 503/9.

⁷¹ النورسي: الرسائل 499/9.

⁷² النورسي: الرسائل 397/9.

فذلكة البحث

عندما تطغى الرابطة القومية على الرابطة الدينية في البلاد المسلمة التي تعرف بالتلون القومي والشعوبي والثقافي والعرقى، فإن البلد سيتحول إلى بؤرة من الاضطرابات والفوضى السياسية، لأن مفهوم الأحوة الإسلامية سيتلاشى وينهار، وستهتم كل قومية بنفسها، ويعناصرها من اللغة والثقافة والجنس والعرق، وهذا بكل تأكيد مناقض لفلسفة القرآن الكريم الجليلة التي ترفض جميع الروابط التي تسبب

التناحر والتخاصم والتصادم، ولا يرى النورسي بأسا بالروابط الوطنية والمهنية وغيرها، عندما لا تكون أداة لظلم الآخر، ولا تكون بديلا عن الدين، بأن تحل محله، وقد أوضح النورسي هذه الحقيقة في رسائله. ولقد ركز النورسي على مفهوم القومية بشقيها الإيجابي والسلبي، فالقومية الإيجابية نابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية، وهي سبب التعاون والتساند، وتحقق قوة نافعة للمجتمع، وترسخ مفهوم الأخوة الإسلامية، بينما القومية السلبية أو العنصرية مرض أوربي مشؤوم هز أوربا حقبة من الزمن، فهي من إفرازات المدنية الغربية، أرادت تمزيق العالم الإسلامي ليسهل ابتلاعه. ولقد حاول النورسي من خلال رسائله وحواراته أن ينقذ البلد من شر هذه الدسائس والمكايد، فبدأ بإصلاح الولايات الشرقية خشية تحولها إلى بؤرة قلق واضطرابات في المستقبل، وخاصة أن دعاة القومية ظهروا بين الأكراد والأتراك، وهؤلاء بأفكارهم وتصوراتهم العنصرية سيوقعون البلد في حرب ضروس، كما حصل ذلك في بعض دول العالم، وبالأخص أوربا. وكان من جملة ما اقترحه النورسي لأصلاح الولايات الشرقية تأسيس جامعة عظيمة على غرار جامعة الأزهر لخدمة الدين والدنيا، لأنه بهذه المؤسسة المعرفية سيتمكن من محاربة الأعداء الثلاثة (الفقر والجهل والاختلاف)، وكذلك اقترح فتح مدارس باللغة الكردية في مناطق معينة ليتمكن الأكراد من الاستفادة من العلوم الحديثة لا التعويل فقط على العلوم الدينية الشرعية.

أهم النتائج

- من أهم النتائج التي توصل إليه الباحث، نوجزها في النقاط التالية:
- العنصرية رابطة هشة لا تدوم، لأنها تقوم أساسا على ظلم الآخر، وتصبح بديلا عن الدين، لأنها ترفض الرابطة الدينية أساسا.
 - العنصرية من ثمار المدنية الغربية الحبيثة، عانت منها أوربا دهرا، وهي تريد بثها في العالم الإسلامي ليشنته، فيسهل ابتلاعه.

- المدنية الإسلامية التي أسسها القرآن الكريم ترفض جميع أشكال العنصرية، وتؤمن بمبدأ التعاون والتعارف والتساند والتعاقد بين الأمم والشعوب، وخير الناس أنفعهم للناس.
- لن تدوم الأخوة الإسلامية بين شعوب العالم الإسلامي وخاصة بين الأتراك والأكراد، إذا لم تحقق الحكومة العدالة والمساواة بين الولايات الشرقية المتخلفة، والولايات الأخرى المتطورة.
- لن يتخلص الأكراد من مشاكل الفقر والجهل والاختلاف إلا بتأسيس جامعة متطورة جامعة بين العلوم الدينية والحديثة، ويقصد بذلك جامعة الزهراء على غرار جامعة الأزهر لكي تتخلص تلك الولايات من مشاكل الفقر والجهل والاختلاف.
- لن تتحقق المساواة بين الأتراك والأكراد إلا إذا قامت الحكومة بفتح مدارس باللغة الكردية لأن الأكراد لا يفهمون اللغة التركية، وبذلك سيتمكن الأكراد من مواكبة التطور المعرفي والثقافي في البلد.

المصادر والمراجع

أولاً) القرآن الكريم.

ثانياً) كتب صحاح السنة والمسانيد والسنن.

ثالثاً) الكتب والمؤلفات والرسائل

1. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة (د.م.ط. مؤسسة ناصر للثقافة).
2. ابن منظور: لسان العرب (بيروت، دار صادر، ط1، د.ت).

3. الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 2001م).
4. أليكس، جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ترجمه عن الروسية: خلف محمد الحداد(الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1417هـ، 1996م).
5. برتراند رسل: حكمة الغرب ترجمة د.فؤاد زكريا (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1983م).
6. الجاحظ: رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون (بيروت، دار الجيل، ط1، 1411هـ، 1992م).
7. الجزري: شرح ديوان الجزري للملا عبد السلام الجزري، ضبط النص وعلق عليه: تحسين إبراهيم الدوسكي (دهوك، دار سبيريز، 2004م).
8. عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة(القاهرة، مكتبة مدبولي، ط3، 2000م).
9. عبد الوهاب المسيري: الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ (القاهرة، دار الشروق، ط4، 1426هـ، 2005م).
10. عرفات كرم مصطفى: تاريخ التعريب الديني (أربيل، مطبعة جامعة صلاح الدين، ط1، 2006).
11. كارين أرمسترونغ: النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، ترجمة: محمد الجوراء(دمشق، دار الكلمة، ط1، 2005م).
12. لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم (بيروت، دار الطليعة، ط2، 2006م).
13. لفيف من العلماء: المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية(د.م.دار الدعوة، د.ط.ت).
14. مجلة الفجر الجديد (العدد 14 سنة 2004، العراق، كركوك) د.عرفات كرم مصطفى: ملاحظات حول الدراسات التي تناولت الحركة الشعبية.
15. النورسي، سعيد: كليات رسائل النور، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي(استانبول، دار سوزلر، ط3، 1419هـ، 1998م).